



عناصر المادة

- 1- الغنائم، أهميتها وخطورتها
- 2- قصة الغنائم في تاريخنا
- 3- صورة مضيئة
- 4- الغلول، درب الهالك
- 5- أدوية ناجعة

مقدمة:

إن الذين يسقطون في هاوية البحث عن الغنائم لا يمكن أن ينححوا في رفع راية عقيدة أو حضارة..
إن قصة "الغنية" في تاريخنا غريبة، والدرس الذي تلقيه علينا أغرب!!
لقد بدأت أولى دروسنا بسبب الغنية مبكراً..

ولقد وقفتا مرغمين - عند آخر مدى وصلت إليه فتوحاتنا، بسبب الغنية - كذلك!!
فقصة الغنية.. هي قصة الدروس الأقسى في تاريخنا .

وإن بريق المادة إذا غالب بريق الإيمان،، فانتظر درساً ربانياً فاسياً تطيش منه العقول.
1- الغنائم، أهميتها وخطورتها:

إن قضية الغنائم - مال حصل من كفار بقتل - مغني المحتاج للشربيني - فُرقان بين الأصيل والدخيل، وبين من خرج لله وخرج لغيره، ولعِظم شأنها وخطورة أثرها فقد أنزل الله سبحانه فيها قرآنًا يتلى إلى يوم القيمة وبسورة كاملة هي سورة (الأنفال).

وليس عبثاً ولا مصادفةً - وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً - أن تأتي سورة الأنفال بين سورتي (الأعراف) و (النوبة)، **وكان في ذلك إشارة إلى أمرين اثنين:**

- أنها بعد سورة الأعراف: فهي الفرقان بين الحدين والفرقين (الذين خرجوا لله، أو للمال والجاه).
- أما أن بعدها سورة النوبة: فإن الغنائم بالمجمل تأتي بالنزاع والشقاق والغلول، فتحتاج مثل هذه الحوبات والآثام لتنورة صادقة نصوح.

إن سورة الأنفال جاءت لتربيتنا على أمر هام واحد: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الأنفال 1)

واليها من آية قطعية، حازمة في هذا الباب..

(لا تلتفتوا للغائم فهي بفضل الله ونصره، والتفتوا لقوى قلوبكم وأخرجوا حب الدنيا منها)

- ولخطورة هذا الأمر، وحفظاً للمجتمعات والأمم من آثارها السلبية، فقد كانت هذه الغائم محرمة على من قبلنا من الأمم، حتى ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلَّت لي الغائم، ولم تحلْ لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة) (أخرجه البخاري/335، ومسلم/521).

- وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غزا النبي من الأنبياء - هو يوشع بن نون عليه الصلاة والسلام -، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما بين بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقفها، ولا أحد اشتري غنماً أو حلفات وهو ينتظر ولادها، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه، فجَمِعَ الغائم، فجاءت - يعني - النار تأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولاً، فليأياعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها، ثم أحلَّ الله لنا الغائم رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا). (البخاري/3124).

ووجه الشاهد في الحديث أن الغائم كانت محرمة على الأمم قبلنا، فكانت تجمع كلها في نهاية المعركة في مكان واحد، ثم تنزل نار من السماء، فتأكلها جميعاً، وهي علامة قبول الله لتلك الغائم، فإن غل أحد منها شيئاً لم تأكلها النار، فجمعت الغائم وجاءت النار فلم تأكل منها شيئاً، فعرف النبي يوشع أن هنالك غلولاً وأخبر جيشه بذلك، ثم أمر بأن يبايعه من كل قبيلة رجل، فلصقت يده بيده رجل من القبيلة التي فيها الغلول، فعرف أن الغالين هم من هذه القبيلة، وطلب أن يبايعه كل فرد من أفرادها على حدة، فلصقت يده بيده رجلين أو ثلاثة وكانوا هم أصحاب الغلول، فأمرهم بإحضار ما أخذوه، فجاءوا بقطعة كبيرة من الذهب على شكل رأس بقرة، فلما وضعت مع الغائم جاءت النار فأكلتها.

وقد منَّ الله عز وجل على هذه الأمة، فأحل لها الغائم التي كانت محرمة على من قبلها من الأمم، وستر عنها أمر الغلول، وفضحة عدم القبول، وهو من خصائص أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

ومن خلال الحديث يتبيَّن لنا أن المهمات الكبرى، والقضايا المصيرية التي يرتبط بها عز الأمة ونصرها، ينبغي ألا تفُوض إلا لحازم فارغ القلب، لم تأسره الدنيا، ولم يشغلها المعاش، ولم تله الشهوات، لأن المتعلق بأمور الدنيا، وشؤون الحياة والمعاش، قد يضعف عزمه عن المواجهة والإقدام، والقلب إذا شعُّت به الهموم ضعُّ عمل الجوارح، وإذا اجتمع قوي عملها وتوحد لهم، وهو معنى جليل يحتاجه العبد في سيره إلى الله تعالى.

2- قصة الغائم في تاريخنا:

- كان قائداً المعركة في أحد هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وخالف الرماة أمره، وخافوا من أن تضيع فرصتهم في الغنيمة .. وشهد الجبل العظيم استشهاد سبعين رجلاً من خيرة المسلمين .. بسبب الغنيمة .. بل كانت أن تكون سبباً في قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة، فكسرت رباعيته ودخلت حلقتا المغفر في وجهه الشريف. كما في حديث أنس بن مالك: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أَحُدٍ، وَشُجَّ فِي جَبَهَتِهِ، حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمًا فَعَلُوا هَذَا بَنَيَّهُمْ، وَهُوَ يَدْعُوُهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ) (رواه مسلم/1791).

- والغنيمة كانت مجدًا وراء عتاب النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار - الذين رضي الله عنهم - يوم حُنینٍ فقد عُوزِّيَ الأنصارَ لِمَا قَالُوا: يُعطِي الغائمَ قُرِيشًا وَيَتَرَكُنا وَسُيُوقُنا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ! فَقَالَ لَهُمْ: (أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا

وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بُيُوتِكُمْ). (رواه البخاري/ 4334، ومسلم/ 1059).

- وها هي الغنيمة مرة أخرى وفي نفوس أمهات المؤمنين، فيوحي الله تخبر أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الواتي طالبته بالتوسعة في النفقة عليهن بعد ما وسع الله عليه وعلى المسلمين من فيء بنى قريظة العظيم وما قبله من الغنائم - بين متع الحياة الدنيا وزيتها أو إيثار الله ورسوله والدار الآخرة. وقد اختن الله ورسوله والدار الآخرة، ورضي هذا المقام الكريم عند الله ورسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وأثره على متع الحياة - رضي الله عنهم وأرضاهن - . يقول الله سبحانه:

(بِأَيْهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَ تَرْدِنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِيَّنَتْهَا فَتَعَالَيْنَ أَمْتَعْكُنَّ وَأَسْرَحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا) (الأحزاب 28).

- والغنيمة هي التي جرأت ذي الخويسرة رأس الخوارج على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال هذا الأثم: أعدل يا رسول الله فقال أعدل البشر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَيَلَّكَ، إِنْ لَمْ أَعْدُلْ فَمَنْ يَعْدُلْ ؟؟!!). (رواه البخاري/ 6163، ومسلم/ 1064).

- وتستمر قصة الغنائم في تاريخنا، لتعلمنا أقسى الدروس وأشدتها.. فهل تعلمون أنها الأمر الذي حال دون إسلام أوروبا، وتوقف الفتح الإسلامي على حدود فرنسا ؟؟!! - بعد مشيئه الله وأمره - فمنذ تم الاستقرار في المغرب العربي واسبانيا الإسلامية، والمسلمون يطمحون إلى اجتياز جبال البرانس وفتح ما وراءها، هكذا أراد "موسى بن نصير" لكن الخليفة الوليد بن عبد الملك "خشى أن يغامر بالمسلمين في طريق مجهولة، ثم فكر على نحو جدي "السمح بن مالك الخولاني" والتي الأندلس ما بين عامي (100 - 102 هجرية)، وتقديم فاستولى على ولاية (سبتمانية) إحدى المناطق الساحلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط جنوب فرنسا، وعبر - بذلك - "السمح" جبال البرانس، وتقديم فنزل في أرض فرنسا منعطفاً نحو الغرب حيث مجرى نهر الجارون، مستولياً في طريقه على ما يقابلها من البلدان، حتى وصل إلى - تولوز - في جنوب فرنسا -، وُقتلَ السمح، وتراجع جيشه تحت قيادة أحد قواه (عبد الرحمن الغافقي) فكان السمح لم ينجح إلا في الاستيلاء على سبتمانية، ثم واصل الوالي الجديد بعد (عنبرة بن سحيم الكلبي) التقدم نحو أوروبا، وإن كان قد غير طريق السير، وتمكن من الوصول إلى "أوتان" في أعلى نهر الرون، لكنه لم يكن حذراً فلم يؤمِّن طريق عودته فانتهى الأمر بقتله وعاد جيشه إلى أربونة في سبتمانية .

لكن عبد الرحمن الغافقي، كان الشخصية الحاسمة التي أرادت التقدم نحو أوروبا وحرست عليه، وكان عبد الرحمن مشبعاً بروح الإيمان والرغبة في الثأر لما أصاب المسلمين من قبل حين قتل "السمح" وحين رجع هو بالجيوش الإسلامية إلى سبتمانية (وقد أُعلن الغافقي الدعوة للجهاد في الأندلس كلها وفي أفريقيا، وقد جاءته وفود المتطوعين من كل مكان، كما أنه من جانبه استعد استعداداً كبيراً لهذا الغزو) .

ولقد التقى المسلمون (عرباً وببربة) بالمسيحيين بين بلدي "تورو" و "بواتيه" على مقرية من باريس، وكان قائد النصارى (شارل مارتل)، بينما كان (عبد الرحمن الغافقي) يقود جيوش المسلمين. وكانت المعركة شديدة قاسية استمرت قريباً من سبعة أيام، وكان الجيش الفرنسي وحلفاؤه أكثر من جيش العرب، ولكن المسلمين أحسنوا البلاء في القتال، وكاد النصر يتم لهم .. لو لا أن ظهرت قضية "الغنائم" !! لقد عرف المسيحيون أن لدى الجيش الإسلامي غنائم كثيرة حصل عليها من معاركه أثناء تقدمه من قرطبة حتى "بواتيه" ..

وقد أثقلت هذه الغنائم ظهور المسلمين، وكان من عادة العرب أن يحملوا غنائمهم معهم، فيضعوها وراء جيشهم مع حامية تحميها .

وقد فهم النصارى هذا، ونجحوا في ضرب المسلمين عن طريق التركيز على هذا الجانب، لقد شغلوهم من الخلف . من جانب الحامية المكلفة بحراسة الغنائم .. ولم يفطن المسلمون للتخطيط النصري، فاستدارت بعض فرقهم لحماية الغنائم ..

وبالتالي اختل نظام الجيش الإسلامي .. ففرقة تستدير لحماية الغنائم، وأخرى تقاتل النصارى من الأمام .. وبعثاً حاول عبدالرحمن الغافقي إنقاذ نظام الجيش الإسلامي، إلا أن سهماً أصاباه وهو يبذل محاولاته المستمرة .. فوضع حداً لمحاولات الإنقاذ، وأصبح جيش المسلمين دون قيادة .. وتقى النصارى فأخذوا بخناق المسلمين من كل جانب وقتلوا من جيشهم الكثير !!

لقد كانت " بلاط الشهداء " سنة 114 هجرية آخر خطوات المد الإسلامي في اتجاه أوربا، أو على الأقل آخر خطواته المشهورة . والسبب ؟ الغنائم !

يا الله.. أبعد هذا نتعجب من تأخر نصر ؟؟!! أو هزيمة في معركة من المعارك ؟!!

3- صورة مخيبة:

- ومع ما ذكرنا من قبل فلم يخل تاريخنا من صور ناصعة، كانت الغنائم فيها بنظر الجندي المسلم - وسيلة لا غاية، فها هي الغنائم تحمل إلى عمر رضي الله عنه بعد القادسية- أعظم ملاحمنا مع الفرس الأنجاس -، وفيها تاج كسرى وإيوانه الدين لا يقونان بثمن.. فنظر رضي الله عنه إلى ما أداه الجندي في غبطة وقال: (إن قوماً أدوا هذا لأميرهم لأمناء)..نعم، فهذه التربية الإسلامية الربانية لجند الانتصارات والفتورات.

- إن الترفع عن الغنائم والأنفال من شيم النفوس الكبيرة، والأخلاق الرفيعة، حتى قبل الإسلام فقد كان المقصود الأهم من الحرب هو إباده الأعداء، ولذلك ربما كان صناديدهم يأبونَ أخذَ الغنائم كما قال عنترة: *إِنَّا إِذَا احْمَرَّ الْوَغَى نَرْوِي الْفَتَّا *** وَنَعْفُ عَنِ الدَّمَقَاسِ الْأَنْفَالِ* سبحان الله !! أين فسائل الغنائم وسائل الأنفال والتي لا تشتراك في المعارك إن لم تعجبها الغنيمة؟! أين هم من هذه الأخلاق؟!

وعلينا أن نتيقن من حقيقة هامة وهي: إن بريق المادة إذا غلب بريق الإيمان،، فانتظر درساً ربانياً قاسياً طيش منه العقول.

4- الغلول، درب الهاك:

مما يتصل بالغنائم من أمور، بل هي أخطرها على الإطلاق، قضية الغلول: وهو ما يأخذ في المعارك من العدو قبل قسمة القائد، وهي التي جاء فيها قوله تعالى: (إِنْ يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلُلَ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ*) (آل عمران 160-161).

وما فائدة إحضار الغلول في ذلك اليوم العصيب ؟! إلا أن الآية للزجر والتهديد.

- وقد جاء في تفسير قول الله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلَنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا) (الإسراء:18)

قبل: إنها نزلت في المنافقين كانوا يراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها. ثم جعلنا لهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا مطروداً من رحمة الله تعالى(تفسير البيضاوي).

الغلول هذا قطعة من نار والعياذ بالله وقد جاء في الحديث: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَجَعَ مِنْ خَيْرِ قَاصِدًا وَإِدِيرِ الْقُرَى وَكَانَ لَهُ عَبْدٌ أَسْوَدٌ يُدْعَى مِدْعَمًا، فَبَيْنَمَا هُوَ يَحْطُرُ رَحْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَقَالَ النَّاسُ: هَيَّا لَهُ الْجَنَّةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمَلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْرٍ مِنَ الْغَنَائمِ لَمْ تَصُبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلْ عَلَيْهِ نَارًا) (انظر البخاري/ 4234، ومسلم/ 115).

يا الله... لقد كان من المجاهدين، ومع من ؟؟ كان مع سيد المتقين صلى الله عليه وسلم، إلا أنه رسب في امتحان الغنائم !!. فليكن الحذر صاحبك - أيها المجاهد - من هذا الوباء الفتاك، وقد نُقل لنا أن بعض المقاتلين مات متأثراً بجراحه فور

انتهائه من طمر بندقيةٍ غلها - ولا حول ولا قوة إلا بالله -

5- أدوية ناجعة:

أ- الالتجاء إلى الله بقلب ضارع، كما قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبِّيْكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (الأنفال: 24)

ب- دوام الذكر له سبحانه حتى عند نزال العدو، قال تعالى: (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا أَقِيْمَ فِتْنَةً فَابْتُلُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الأنفال: 45)

د- سماع النصح والتبيه والامتثال لأمر الله في ذلك، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِبِّعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُوا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَاتَلُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَ الدُّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الْحُسْنُ الْبُكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَنْ عِلْمَ اللَّهِ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَنْ أَسْمَعَهُمْ لَنَتَوَلُوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) (الأنفال: 21 - 23)

وعلينا أن نؤمن بذلك القانون الرباني العظيم، والتوجيه الإلهي الحال:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا تِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِ) (الأنفال: 53)

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق والأفعال، واصرف عنا سوء الأخلاق والأفعال، وانصرنا نصراً عزيزاً قريباً، مولانا رب العالمين

والحمد لله رب العالمين

رابطة خطباء الشام

المصادر: